

غزو مخطط ومدبر

«منذ أن جمع محمد أعضاءه الأولين في مطلع القرن السابع وبدأ أول خطوات الانتشار العربي أصبح على العالم الغربي أن يحسب حساب الإسلام كقوة دائمة وصلبة تواجهه عبر البحر الأبيض، إن قوى الغرب المسيحية كانت تواجه العالم العربي على مدى ١٣٠٠ سنة في نهضته وانهاره».

مستر ناتنج وزير الدولة البريطاني في كتابه العرب ١٩٦٤

سبق أن تحدثت عن هذا الغزو باختصار وتركيز حين عرض التيارات التي تعرضت لها ثقافة المسلم.. والآن نصل إلى الحديث عن هذا الغزو المخطط المدبر بما يستحقه من تبصير المسلم به حتى لا يعيش في غفلة، لا يعرف الجذور لما تعرض له ثقافته بل حياته كلها الآن..

الركيزة المهمة في ثقافة المسلم:

إن أهم ركيزة تقوم عليها ثقافة الأمة الإسلامية، هي دينها الذي يتمصص روحها ويسرى في دمها، ويضفي معاله على مظهرها، في أي مكان أو زمان يوجد فيه المسلمون.

ففي أي مكان يعيش فيه المسلم، يعيش معه دينه أو يعيش بدينه، ينتقل معه كما ينتقل دمه، وينبض فيه كما ينبض قلبه حتى وإن لم يكن ملتزماً به كما يجب..

فثقافة المسلم العربي، والمسلم غير العربي في الشرق، أو في الغرب، أو في إحدى مراكز الفضاء تقوم أول ما تقوم على دينه، وتأتي بعد ذلك العوامل الأخرى، من لغة وبيئة وتقاليده وأداب لتلون هذه الثقافة بعض التلوين، فنقول ثقافة المسلم العربي، المسلم الباكستاني، الياباني، الصيني، الإنجليزي الأمريكي.. إلخ...

وهذا يعنى أن الدين عامل هام مشترك وفعال فى تكوين وجدان المسلم أو ثقافته أينما يكن. ومن خلال هذا العامل الفعال ينظر غيرك أول ما ينظر إليك.. وهذه أول بدهية أحب ألا تغيب عن أى إنسان مسلم. حتى يعرف نفسه ولا يتوه أو يعيش بلا هوية.

والبدهية الثانية إن الإسلام جاء بعد ديانتين سماويتين، كان لهما تأثيرها وأنصارهما فى المجتمع حوله.. وكان الشرق كذلك موطنها الأصلي.. ومنه سرت إلى غيره.. وكانت اليهودية وأنصارها وثقافتها أول ما اصطدم الإسلام به - وهو لا يزال - فى دور طفولته وحبوه فى المدينة.. حيث أعلن اليهود فى المدينة عداؤهم وحرهم على الدين الجديد، بأساليب مختلفة.. مما كان له أثره فى التاريخ، وخرج اليهود من هذا الاصطدام مقهورين حرياً مشتين.

وكانت المسيحية المائل سلطانها القوى فى قيصر الروم وإمبراطورته الشرقية فى «بيزانطة» فى جوار أرض الرسالة من الشمال حيث كان يحتل الشام، قبدأ القيصر يحس الخطر على ملكه من القوة الناشئة، ويحشد جيوشه للقضاء عليها فى مهدها، مما ترتب عليه بعض المعارك فى السنين الأخيرة من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم لم تنته بانتصار حاسم من أحد الجانبين، فلم يتسلط أحدهما على الآخر.

ولكن المسلمين ما لبثوا بعد وفاة الرسول أن تحركوا فى الشرق لأرض كسرى وفى الشمال لأرض القيصر الذى يستعمرها، ويسيطر عليها فى الشام، وفى المغرب حيث كانت مصر والشمال الأفريقى من مستعمرات القيصر، وكانت هذه الجولة فى صف المسلمين حيث استطاعوا أن يخلصوا أرض الشام والشمال الأفريقى من سلطان القيصر وتصبح أرضاً إسلامية، ثم ضموا إلى ذلك أسبانيا (الأندلس) وأجزاء من جنوب أوروبا. وتحول البحر الأبيض بذلك إلى بحيرة إسلامية، بعد أن كان بحيرة رومية، وذلك خلال قرن واحد من الزمان ومن هنا بدأت العداوة للمسلمين الذين هزموا الملك المسيحى وانتزعوا منه مستعمراته وانتزعوا بالتالى زمان السيطرة منه وأمسكوا هم بها.. وظهر المسلمون فى صورة العملاق الذى لا يقهر..

«وأصبح على العالم الغربي المسيحي أن يحسب حساب الإسلام كقوة دائمة وصلبة تواجهه عبر البحر الأبيض» - كما يقول مستر ناتنج..

«ومستر ناتنج» يعبر بذلك عن نفسيته ونفسية الغرب المسيحي على اختلاف أممه^(١) وبرغم ما بين دوله من عدااء ومناقسات.. وحروب..

حتى وجدنا «مستر إيزنهاور» رئيس الولايات المتحدة الأسبق يتحدث في التليفزيون حين بدت بوادر حرب ١٩٦٧، وما ظهر فيها من اتجاه رئيس مصر الأسبق نحو الحرب، ويقول «لو تركنا عبدالناصر ينتصر على إسرائيل، لسيطر على البحر الأبيض، وحوله - كما كان سابقاً إلى بحيرة إسلامية».. لم ينسوا..

وقد غذى هذا العدااء وزاد في حدته انتصارات المسلمين المتتالية، حتى أخضعوا جزر البحر الأبيض وأجزاء من جنوب فرنسا وإيطاليا لحكمهم^(٢).. في حين كان الأمويون يحاصرون القسطنطينية ويحاولون فتحها ١٠٨ هـ - ٧٢٦ م، وشارلمان إمبراطور الدولة الرومانية يشن حملاته على الأندلس ١١٢ هـ - ٧٧٨ م، والمعتصم العباسي ينتصر على الروم ٢٢٤ هـ - ٨٣٨ م، وألب أرسلان يحارب البيزنطيين، ويحز رأس إمبراطورهم «رومانوس» من ٤٥٥-٤٦٥ هـ - ١٠٦٣-١٠٧٢ م.

فكانت الحروب بين المسلمين، وبين المسيحيين في الشرق والغرب مستمرة، ونار العداوة مشتعلة، وإن غطتها أحياناً هدنة اختيارية بين الطرفين، أو هدنة إجبارية للاستعداد.. وكانت في حقيقتها حروباً سياسية دينية، بدأت بالحرب مع قيصر الروم وانتزاع مستعمراته^(٣).

(١) ومثله ما يراه «جاردنر» من أن القوة التي تكمن في الإسلام هي التي تخيف أوروبا التبشير والاستعمار ص ٣١ للدكتور مصطفى الخالدي، وعمر فروخ «الطبعة الأولى بيروت ١٩٥٣ م.

(٢) فتحوا جنوب فرنسا سنة ١٠١ هـ - ٧١٩ م. واحتلوا «كريت» ٢١٠ هـ - ٨٢٥ م وصقلية ٢١٢ هـ - ٨٢٧ م، وبارى وسينيا بجنوب إيطاليا ٢٢٨ هـ - ٨٤٢ م.

(٣) يرى المستشرق الألماني «كارل بگر» «أن الإسلام لما انتشر في العصور الوسطى أقام سداً في وجه انتشار النصرانية، ثم امتد إلى البلاد التي كانت خاضعة لصولجانها» ويقول «جاردنر» يحاول المبشرون أن يصورا العداوة بين الإسلام والغرب دينية، ولكن الحقيقة لا تلبث أن تظهر في فلتات لسانهم، فإذا هي سياسية إن «يوليوس رشر» يؤنب النصارى على قصر نظرهم في أثناء الأعصر المتظاولة التي تلت =

= ظهور الإسلام فإنهم كانوا فيها وادعين غافلين في حين كانت الإمبراطورية البيزنطية الرومانية الشرقية تغيب شيئاً فشيئاً في الإمبراطورية الإسلامية، حتى سقطت القسطنطينية نفسها عام ١٤٥٣ م بيد الأتراك العثمانيين» - التبشير والاستعمار ص ٣١ ولا داعي لأن يختلفوا فهي سياسة دينية التقت فيها أطماع السياسين مع أحقاد الدينين، لكننا نجد إمبراطور الروم «نقفور فوقاس» يرسل للخليفة العباسي حده فيها بالاستيلاء على بلاده، وهدم الكعبة، ونشر المسيحية في الشرق والغرب معاً فتبدو الروح الدينية الحاقدة، ونجد الروم لا يكفون عن مهاجمة الدولة الإسلامية بهذه الروح حتى أوقع السلطان السلجوقي ألب أرسلان بالإمبراطور البيزنطي «مانوس الرابع» هزيمة ساحقة وأسره وأباد جيشه في موقعة «مانزكرت» شرق آسيا الصغرى ١٠٧١ م ص ١٩ - أضواء جديدة على الحروب الصليبية للدكتور سعيد عاشور.

الحروب الصليبية

- أمام عوامل متعددة لقيت دعوة البابا لشن حرب شاملة على المسلمين - بدعوى استرداد الأماكن المقدسة من المسلمين - استجابة عامة.

فوجدنا أوروبا كلها تجمع جموعها، ويشعل رجال الدين والأمراء والملوك فيها هب العدا على المسلمين، ودولهم في الشرق، ويزحفون عليه في أفواج من الجيوش متتالية بقيادة ملوكهم، ويستولون على بيت المقدس ١٠٩٩م ويذبحون ٧٠ ألف مسلم، وقيمون إمارات لهم في الشرق الإسلامي بدءاً من سنة ٤٩٠هـ - ١٠٩١م أو سنة ١٠٩٧ إلى ٦٩٠هـ - ١٢٩٠م، وتقوم بينهم وبين المسلمين حروب طاحنة في الشام وفي مصر.. انتهت كلها بهزيمتهم أمام جيوش المسلمين، ورجوعهم إلى أوروبا، يجرون وراءهم أذيال الفشل والخيبة، دون أن يحققوا أطماعهم، ويشفوا أحقادهم، التي دفعتهم إلى هذه الحروب، رجعوا بخيبة الأمل بعد التضحيات المالية والبشرية الهائلة، التي قدمها المسيحيون من كل مكان في أوروبا، وقدمها كذلك المسلمون.

وقد كان المهيجون للمسيحيين يجوبون البلاد - من رجال الدين وغيرهم - يحمسون الشعب للخروج في هذه الحرب المقدسة، ويذكرون لهم عن المسلمين ورسولهم كل ما وسعه خيالهم، وأملته أحقادهم من نقائص تثير حماسهم، وتدفعهم للتضحية بأرواحهم، للقضاء على المسلمين ودولهم.

وظل هؤلاء المهيجون يصبون هذه الأحقاد في نفوس المسيحيين الأوربيين، حتى ترسبت وكونت فيها جبالات مترامية من الأحقاد على المسلمين، وعلى دينهم، وزاد من ترسب هذه الأحقاد وتكلسها في النفوس ما أصابهم أخيراً من خيبة الأمل بخروج المسلمين في الشرق العربي من هذه المعمة منتصرين على ملوك وشعوب أوروبا^(١) والعبرة بالخواتيم..

(١) راجع تاريخ الصليبيين في أي كتاب من كتب التاريخ وقد أخذوا بيت المقدس ٤٩٣هـ - ١٠٩٩م =

وبينا المسلمون في الشرق العربي قد وضعوا نهاية لهذه الحروب الصليبية معهم، فإنه كانت هناك حروب صليبية أخرى بين العثمانيين والبرنطينين، وحروب صليبية أخرى في الشمال الأفريقي، حتى هاجموا تونس عدة مرات، وحروب صليبية في الأندلس، لقهروا المسلمين وطردوهم، حتى تحقق لهم ذلك عند سقوط غرناطة ٨٩٨هـ - ١٤٩٢م، وقضى بذلك على المسلمين وحكمهم، وأنزل بهم المسيحيون شر أنواع التنكيل في حين كان الملوك العثمانيون في الشرق قد أصبحوا يمثلون قوة المسلمين الشابة الزاحفة، التي اكتسحت أمامها قوة المسيحيين في بيزنطة، ودول البلقان، وما جاورها.. فيستولى محمد الفاتح على القسطنطينية ٨٥٧هـ - ١٤٥٣م وتدمق الجيوش العثمانية أبواب «فيينا»، ويفرض محمد الفاتح جزية على جمهورية بجنوب إيطاليا، تدفعها له مخطوطات وتحفًا.. وسيطر العثمانيون تمامًا على دول البلقان وضمونها إلى دولتهم، يحكمها ولاية عثمانيون بجيوشهم..

الغرب يبحث عن طريق :

فهل تظن أن هذا الصراع والعداء الجاد المشتعل في نفوس الأوربيين انتهى بمجرد الانتصار الإسلامي العربي عليهم نهائيًا في الشرق؟ أو خمد بمجرد عودتهم مقهورين؟ كلا بل زاد..

إنهم إذا كانوا لم يستطيعوا الوقوف أمام قوة الشرق الإسلامي المسلحة بالعقيدة الإسلامية في ذلك الوقت، فلا بد أن يبحثوا عن طريق آخر ينفذون منه إلى مكنن القوة في هذا الشرق، وبطريق سلمى يقدررون عليه حتى تتاح^(١) لهم القوة..

= وانتزعه صلاح الدين منهم ٥٨٣هـ - ١١٨٧م.. وهزم المصريون جيوشهم في دمياط والمنصورة واسروا قائدهم الملك لويس التاسع وحبسوه في دار ابن لقمان سنة ٦٤٦هـ - ١٢٥٠م ولم يفرج عنه إلا بدفع فدية بما هو معروف...

(١) ليس معنى ذلك أنهم تركوا تهجمهم على البلاد الإسلامية فقد كانوا دائمى الاعتداء والتحرش بالمسلمين في بلاد الأندلس، وفي شمال أفريقيا، وفي غير ذلك من البلاد الإسلامية، كما أن البابا عقب فشل الحروب الصليبية في المشرق، دعا إلى ضرب حصار حول مصر لتجويعها، والبحث عن طريق =

ومن هنا تحول الغزو المسلح إلى غزو ثقافي هادئ يزعمون به مركز القوة في نفوس المسلمين وهو دينهم وعقيدتهم التي توحدهم، فلا تقف قوة أمامهم.. واتحاد المسلمين حول عقيدة، واتجاه، هو الذي يرهب الغربيين دائماً، ويعملون لتحطيمه بكل الوسائل، أو على وجه أدق ليحولوا بين المسلمين وبين تحقيقه، حتى لا تكون لهم قوة..

يقول لورانس براون^(١) «إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم، أو أمكن أن يكونوا أيضاً نعمة له، أما إذا بقوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير».

ولقد ظهر لهم ذلك بوضوح من التجربة التي مرت بهم مع المسلمين في الحروب الصليبية، وكان ذلك أشد ظهوراً ووضوحاً لدى الساسة من ملوك أوروبا وأمرائها الذين أضرموا نار هذه الحرب، وذاقوا مرارتها ومرارة الهزيمة، حين اتحد المسلمون.

لقد عرفوا تماماً من تجربة استمرت قرنين من الزمان: متى كان المسلمون يضعفون وينهزمون، ومتى كانوا ينتصرون؟ ولئن رجعوا منهزمين هذه المرة، لقد رجعوا بفائدة، هي وقوفهم على مكمن القوة للمسلمين، فليعملن على إضعاف مركز القوة فيهم، وهي عقيدتهم التي تجمعهم وتوحدهم، وإذا كانوا لم يصلوا إلى ذلك بالقوة، فأمامهم العمل بالحيلة، وارتداء ثياب المودة للمسلمين، والعمل على نفعهم وإصلاح شئونهم ظاهراً، ومن خلال ذلك ينفذون إلى ما يريدون..

ورجال الدين المسيحي والمتطوعون معهم في خدمة الرب - كما يقولون - جاهزون، يشبعون غرضاً لهم كذلك دينياً وآخر دنيوياً..

= للتجارة غير طريق مصر، وبدءوا يبحثون عن طريق بحري يوصلهم إلى الهند، وحاصلات الشرق عن طريق الالتفاف حول أفريقيا، وتم لهم هذا ثم أن البابا رأى أن يستعين بملك الحبشة المسيحي لمحاصر مصر من الجنوب وغلق البحر الأحمر، ونجح في ضم ملك الحبشة إليه في رأيه، وأخذ يعد جيوشه للهجوم على مصر عن الجنوب، ويعقدون اتفاقات مع ملوك أوروبا للهجوم على مصر، وأرسلت هيلانة ملكة الحبشة سنة ١٥١٠م إلى ملك البرتغال ليعاونها بسفن لتقتل خليج السويس، وباب المنذب وسمته في الرسالة «قاهر المسلمين». راجع أضواء على الحرب الصليبية من ص ٥٨ مصدر سبق ذكره.

(١) التبشير والاستعمار ص ٣٢ مصدر سبق ذكره.

والتقى على ذلك رجال السياسة، ورجال الدين معاً.. ولذلك نرى رجال السياسة في دول الغرب برغم الفصل هناك بين الدين والسياسة وتحمية الدين عن حياتهم كدولة، وبرغم اختلافهم في المذاهب المسيحية.. وعدائهم بعضهم لبعض، يلتقون على تعضيد جهود المبشرين والمستشرقين^(١) على اختلاف مذاهبهم.. لأن الهدف النهائي لهم جميعاً واحد. وهو إضعاف القوة الإسلامية.. فأمریکا غطت نصف الأرض بمبشرين أمريكيان ينعون أنهم رسل سلام: وفرنسا - الدولة العلمانية - تحمى رجال الدين المبشرين في الخارج، حتى اليسوعيين الذين هم خصومها في الداخل.. وإيطاليا كذلك. وباقي الدول الغربية..

والسبب الذي يكمن وراء هذا التوحد، مع هذا التناقض، هو الهدف الذي اجتمعوا جميعاً لخدمته، وهو إضعاف مركز القوة في المسلمين، وتوجيه أكبر جهد لهذا الغرض، لأنهم يعرفون مدى تمسك المسلمين بعقيدتهم، ويعرفون كذلك أن الإسلام يمثل أكبر قوة أمامهم، تجمع لتابعيه بين منافعهم الروحية، ومنافعهم الدنيوية.. ويقدر ما في الإسلام من قوة، وقد رما في أتباعه من مناعة، عملوا على أن يوجهوا له ضربة أقوى مما يوجهونها لأي دين أو مذهب آخر..

إنهم يحاولون تقييد هذا العملاق، أو إضعافه وتخديره، حتى يظل عاجزاً عن الحركة، وجريان الدم في عروقه، حتى لا يواجهوا التجربة معه مرة أخرى.. وويل لهم إذا انطلق العملاق واستعاد قوته.. ولذلك حشدوا له كل وسائل

(١) وكان سفراء الدول الغربية لا يقتصرون على تشجيع المبشرين من دولتهم ومذهبهم، بل يشرون مظلة وقايتهم على المبشرين، على اختلاف مذاهبهم، لأنهم جميعاً يعملون لهدف واحد، هو مصلحة الغرب. وفي عام ١٩٢٤ وقعت الولايات المتحدة وفرنسا اتفاقاً يقضى بالتعاون فيما بينهما لحماية المبشرين وكان يهدف لحماية مبشرى أمريكا في سوريا ولبنان راجع ص ١٦٣ من كتاب التبشير والاستعمار. وفي ص ١٥٢ يقول «وكانت انكلترا تشجع المبشرين من البروتستانت والكاثوليك على السواء في السودان ما دام المبشر يخدم الاستعمار. وانكلترا بروتستانية متعصبة يقسم ملكها حين تتويجه على حماية البروتستانتية، ولكن الغاية تبرر الوسيلة، ولذلك يقول «جسب» «Jesup» يجب ألا يكون ثمت نعوت مثل أميركى «إنكليزى» ألماني إلخ، تعنت أعمالنا التي نقوم بها لخدمة المسيح. إن الخصم المشترك واحد متحد في مقاومتنا، فليكن اسمنا «نصارى» ص ١٧٢ المصدر السابق وفي تقرير عن التبشير كتبه «مستر بلس» يقول: كانت معاملة الحكومة العثمانية للمبشرين تتحسن بواسطة سفراء الولايات المتحدة الأمريكية «الغارة على العالم الإسلامى ص ٢٥، وهو يعنى المبشرين على اختلاف مذاهبهم وجنسياتهم..»

الإضعاف، والتخدير، والتتويم، واحتشدوا ضده، وبأيديهم الإمكانيات التي تسهل لهم العمل، لينام العملاق ويتخدر، وإذا صحا فلدبهم المطارق التي تضربه فوق رأسه تهشمه أو تعمل له ارتجاج مخه.. ليستريحوا مما يؤرقهم، ويقض مضاجعهم باستمرار، دينيين كانوا أم سياسيين، ويشفوا ما في صدورهم من غل على الإسلام والمسلمين، يظهر فيما يقولونه أحياناً وسط التمويلات الكثيرة التي تصدر عنهم «قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر.. يقول جورج براون سنة ١٩٤٤:

«لقد كنا نخاف شعوباً مختلفة، ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبرراً لهذا الخوف، فإن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام، وفي قدرته على التوسع، وقوته في الإخضاع، وحيويته في الانتشار، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي^(١)...»

ومن قبله قال لورد جلادستون رئيس الوزراء البريطاني سابقاً: «ما دام هذا القرآن موجوداً، فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولن تكون نفسها في أمان».

وقال مثل ذلك زعيم شيوعي روسي أيضاً، وتلاقى الشرق الأوربي مع الغرب في هذه النظرة العدائية إلى الإسلام^(٢)...

وما دام الأمر كذلك فلا بد أن تتلاقى خططهم للقضاء على هذا العملاق الذي يقض مضاجعهم بهذه الصورة.. حربية مسلحة كانت هذه الخطط، أو سلمية هادئة في حراسة حراهم.. ومدافعهم، وبكل الوسائل الممكنة والمتصورة، والتي تؤدي في النهاية إلى تحقيق هدفهم... سواء كانوا شيوعيين أم غربيين، في القضاء على الإسلام وثقافته وأمه.

(١) التبشير والاستعمار ص ١٨٧ بتصرف.

(٢) وقال أيزنهاور وكان رئيس الولايات المتحدة في الخمسينات، عندما بدأ شبح الحرب في يونيو ١٩٦٧ بين مصر وإسرائيل في إذاعة تليفزيونية له للشعب الأمريكي «لو تركنا عبد الناصر ينتصر فسيفلق بوغاز جبل طارق ويحول البحر الأبيض إلى بحيرة إسلامية عربية»..

التبشير والاستشراق

وقد اتجهت خططهم في العمل السلمى إلى اتخاذ وسيلتين: التبشير، والاستشراق.

التبشير:

ونحن نستعمل هذه الكلمة مجازاة لهم، حيث أطلقوها هم على عملهم في تدمير الإسلام وغيره، مدعين أنهم يزفون للعالم الإسلامى وغيره، طريق الخلاص عن طريق المسيحية: ويبشرونه بهذا.. على حين نحن نعتقد أن ما يفعلونه هو طريق الهدم للإسلام...

والتبشير في أصل اللغة العربية هو: الإخبار المفاجئ بخبر يظهر أثره على بشرة الوجه خاصة، وعلى باقى الجسم عامة. سواء كان هذا الخبر ساراً أم سيئاً. هذا في الأصل.

ولكن غلب استعماله في الإخبار المفاجئ بخبر سار وطيب، يسر له الإنسان، حين يسمعه، ويقابله: الإنذار. وقد جاء في القرآن كثيراً استعمال هذه المادة «بشر وما يؤخذ منها» في الإخبار بخبر سار.. ﴿إنا نبشرك بغلام عليم﴾^(١) ﴿فبشرناها بإسحاق﴾^(٢) ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾^(٣).. ﴿فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه﴾^(٤) أى وجه والد يوسف، ومنه أيضاً وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾^(٥) ﴿يبشركم ربهم برحمة منه ورضوان﴾^(٦).. ﴿وبشركم الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾^(٧) ﴿وبشركم الصابرين﴾^(٨) ﴿فبشركم عباد، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾^(٩) إلى غير ذلك من الاستعمالات.

(١) الحجر ٥٣.	(٤) يوسف ٩٦.	(٧) البقرة ٢٥.
(٢) هود ٧١.	(٥) الأعراف ٥٧.	(٨) البقرة ١٥٥.
(٣) أول سورة مريم ٧.	(٦) التوبة ٢١.	(٩) الزمر ١٧، ١٨.

ولذا قال بعض المفسرين في قوله تعالى ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾^(١) إن استعمال البشارة هنا هو للتهكم بهم حيث لا يوجد لهم شيء سار يبشرون به.. وإن كان بعضهم قال. إنه روعى فيه أصل استعمال.. المادة. وهو الإخبار بخبر سار أو غير سار، يظهر أثره على البشرة، وهى ظاهر الجلد، ويظهر ذلك أكثر على الوجه وملاحظه.

والإخبار بالعذاب يظهر أثره على وجه الإنسان، ومقابل التبشير: الإنذار وهو الإخبار بخبر سيئ ومفزع.. ولذلك وصف القرآن رسل الله بهذا الوصف الجامع ﴿رسلا مبشرين ومنذرين﴾^(٢) لأنهم يبشرون المستجيبين لهم بالجزاء الحسن، وينذرون المعارضين بالعاقبة السيئة.. والتبشير قد يكون بشيء وخبر وقع، وقد يكون للمستقبل أما الإنذار فلا يكون إلا للمستقبل.

فيكون إطلاق لفظ «التبشير» على ما يقوم به المبشرون في خدمة المسيحية ودولها، هو من واقع نظرهم هم.. ونحن استعملناه أيضا في عملهم مجازاة لهم. حيث يكون كلامنا وكلامهم منصبا على حقيقة واحدة.. وعمل واحد.. وإلا فعملهم هذا هو شر بالنسبة لنا في حقيقته، وليس فيه بشارة بالنسبة لنا، بل هو إنذار بعاقبة وخيمة بالنسبة لديننا وبلادنا..

لكن هكذا صار الاستعمال لكلمتي التبشير والمبشرين..

وسائل التبشير:

وللتبشير طرقه المتعددة، ووسائله المتنوعة، من إنشاء مدارس، وجامعات، ومستوصفات ومستشفيات، وملاجئ، ودور إيواء، وزيارات للبيوت، وتوزيع الدواء والغذاء والكساء، والمساعدة في الإلحاق بالوظائف، وفي الترقيات والنشرات والكتب، إلى غير ذلك من الوسائل السلمية الهادئة، التي تبدو في ظاهرها عملاً إنسانياً يسد حاجة، ويحقق رغبة للفرد والمجتمع، فهو يعتمد على الإغراء.. واستمالة القلوب بوجه عام...،

ومن خلال ذلك ينفذون إلى عقول الناس، أو قلوبهم بما يريدون بثه فيهم... والهدف من ذلك أن يحققوا بالطرق السلمية، ما أرادوا تحقيقه، بالطرق الحربية ففشلوا..

لقد كان الهدف من الحروب الصليبية: تدمير الإسلام وكسر شوكته كما يقول «غاردر»^(١) لقد خاب الصليبيون في انتزاع القدس من أيدي المسلمين ليقموا دولة مسيحية في قلب العالم الإسلامي. والحروب الصليبية لم تكن لإتقاذ هذه المدينة، بقدر ما كانت لتدمير الإسلام.

فلما فشلوا في ذلك استداروا ليحققوه بوسيلة أخرى سلمية هي التبشير والاستشراق.. وإذا كان الإسلام هو العقبة الوحيدة في سيطرتهم على البلاد الإسلامية، وكان المسلم يعقيدته وتمسكه بها يمثل العقبة أيضاً أمام انتشار التبشير بالنصرانية، وضم المسلمين إلى مملكة المسيح - كما يقولون - فليعمل السياسيون والمبشرون متعاونين في إزالة هذه العقبة لينفتح لهم الطريق إلى ما يريدون.. وكان هذا هو السبب في تكتل المبشرين على اختلاف مذاهبهم ودولتهم ضد الإسلام والمسلمين، في كل مجتمع إسلامي، كما كان السبب أيضاً في احتضان السياسيين، أو في تسخيرهم للمبشرين والمستشرقين لتحقيق أهدافهم السياسية، وإرضاء روحهم الحاقدة على الإسلام، فتجمعت قوى الدول الغربية وأموالها، لتقوية التبشير ومساندة رجاله أياً كان مذهبهم، أو كانت جنسيتهم، حتى في الدول العلمانية التي فصلت الدين عن الدولة في سياستها الداخلية كفرنسا وغيرها، فإن السياسيين والحريين في هذه الدول الغربية لا تزال مرارة هزيمة أسلافهم في الحروب الصليبية تغص بها حلوقهم، وتحكم تصرفاتهم إزاء الإسلام والمسلمين... فبعد مضي عدة قرون على هزيمتهم نرى تكتل الغرب ضد الخلافة الإسلامية

(١) ص ١١٦ كتاب التبشير والاستعمار طبعة ١٩٥٣، وغارنر أو جارونر، هو «تبلر غاردنر» خريج أكسفورد جاء لمصر لابساً لباس القسس سنة ١٩٠٤ وهدفه التصدي للعقيدة الإسلامية، فتعلم العربية وأجادها واختار بيت عربي للإقامة فيه، فاستأجره من السلطة الإنجليزية، وأخذ يعقد فيه الاجتماعات، ويلقى المحاضرات ضد الإسلام، وكثيراً ما حطم طلبة الأزهر - حين يسمعون كلامه - أثاث البيت - «أيام وأيام» للأستاذ محمد صبيح ص ٢١٩..

العثمانية في البلقان، ونرى ما قاله الفرنسيون حينما اتجهوا للجزائر واحتلوها سنة ١٨٣٠م، ونرى تصريحاتهم الحاقدة على الإسلام والمسلمين في حرب التحرير الجزائرية في الخمسينيات، ونرى روح هذا التعصب في زحف إيطاليا على ليبيا في أوائل هذا القرن، وما كان ينشده الجنود الإيطاليون الذاهبون لقتال المسلمين في ليبيا، ونرى موقف الغرب من الدولة النيجيرية حين إنسلخت عنها إحدى مقاطعتها «بيافرا»^(١).

ونرى ما قاله «لورد اللنبي» حين دخل القدس في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨: «اليوم انتهت الحروب الصليبية» وكأنهم كانوا مع المسلمين في حرب منذ اندحروا وتركوا الشرق، حتى عاد الجنرال الإنكليزي وإستولى على القدس..

ونرى زميله القائد الفرنسي «غورو» الذي استولى على دمشق يذهب إلى قبر صلاح الدين بجوار المسجد الأموي، ويرفس أحجاره برجله، ويقول: «ها قد عدنا يا صلاح الدين».

وكان الجنرال الجبان يخاطب أحجاراً.. ولو كان صلاح الدين أمامه حيناً لما استطاع أن ينطق إلا بعبارات المذلة والهوان.. ولكنه كان يتحدى الأحياء أحقاد صلاح الدين!!

وهو وزميله القائد الإنكليزي يقولان ما يقولان، بعد أن مرت عدة قرون على الحروب الصليبية، لكنها والأمم الغربية لم ينسوا ثأرها من صلاح الدين، ومن الأمة الإسلامية!..

وهذه الروح عمل المبشرون والمستشرقون، وتلاقت روحهم جميعاً على تحطيم الإسلام والمسلمين بكل الوسائل.. باعتبار أن الإسلام يمثل العقبة الوحيدة أمامهم في السيطرة على الإسلام وأرضه - كما قلنا - فليجتمعوا معاً في زعزعة عقيدة الإسلام في نفوس المسلمين، وقطع صلتهم وولائهم له، وزرع بذور الشك فيه بكل الوسائل..

(١) راجع كتابي «الإسلام والغرب وجهاً لوجه» فصل تسامح الشرق وتعصب الغرب..

وليس هناك ما هو أقوى في ذلك من الأسلحة السلمية: التعليم والتطبيب والإعانات، والخدمات.. ينفذون بذلك كله إلى العقول والقلوب بهدوء، وبوسائل الإغراء والإقناع..

وإذا اهتز في المسلم وفي ثقافته وكيانه عموده الفقرى وهو الإسلام، أصبح «كومة» من اللحم تنهشها الكلاب...

وإذا سقط من «هوية» المسلم إسلامه، وسقط من هوية المسلم العربى مع ذلك لغته، صار المسلم بلا ثقافة، وبلا هوية، وأصبح تائها مشرداً كالكلب الضال، يتلمس ما يرطب لسانه، ويحرك معدته، ويشبع جوعته ويجرى وراء ما يرمى إليه من أشياء وفضلات تحقق له طلبته...

وهذا هو ما يريد الغرب الحاقدا أن يصير إليه المسلمون.. وهو على ضوء هذا يتصرف في الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية معهم، وهو على ضوئه أيضاً، يضع نفوذه وسلطانه في خدمة المبشرين والمستشرقين، ومن قبل أن يأتي الغرب مرة ثانية بجيوشه إلى الشرق في القرن التاسع عشر، ويتحكم فيه، كانت جيوش المبشرين قد سبقته تزحف زحفاً سلمياً على الشرق الإسلامى، لتزعزع عقيدته وتشل فيه روحه، ليكون خاوياً من الداخل، لا عقيدة له تسنده، ولا روح فيه تقوى صلبه.. فكان المبشرون طليعة هذه الجيوش، وهذا النفوذ الغربى في بلادنا، مهدوا له بمؤسساتهم التى أقاموها في البلاد الإسلامية، لتنفيذ أغراضهم تحت راية الأعمال الإنسانية...

يجب على المسلم أن يعرف:

ومن الضرورى أن يعرف المسلمون هذه الحرب السلمية التى أعلنت عليهم، بعد انهزام الصليبيين عسكرياً في الشرق، ويقفوا على الخطط والبرامج والوسائل التى وضعها هؤلاء لتفريغ المسلمين من داخلهم، لتسهل السيطرة عليهم دينياً، بضمهم لمملكة المسيح، وعسكرياً بتحويل بلادهم إلى مستعمرات للغربيين... وليس من غرضى هنا أن أضع أمامك كل هذه الخطط والوسائل والأهداف،

التي نطقت بها ألسنتهم، وعملت لها جهودهم، لأن ذلك يطيل الكتاب، ويخرج بنا عن الخطة التي رسمناها للحديث عن الغزو الفكري ويشعب أماننا البحث...
ولهذه أحب أن أوجه القارئ إلى معرفة هذا بشيء من التفصيل من كتابين مهمين متخصصين في هذه الناحية:

أولهما: كتاب «الغارة على العالم الإسلامي»:

وهو ترجمة لما كتبه المبشرون أنفسهم عن جهودهم في التبشير في العالم كله، والمنشآت التي أقاموها، والمؤتمرات التي عقدها حتى أوائل هذا القرن سنة ١٩١٣م لتنفيذ أغراضهم.. وقد نشر ذلك في مجلة «العالم الإسلامي» الفرنسية بهذا العنوان، وترجمه الأستاذ/ السيد محب الدين الخطيب، والأستاذ/ مساعد اليافي، ونشر تباعاً في صحيفة المؤيد سنة ١٣٣٠ في صحيفة الفتح سنة ١٣٤٩هـ ونقلته مجلات وصحف أخرى، حتى طبع سنة ١٣٥٠هـ بالمطبعة السلفية، وهو من تأليف «مسيو شاتليه».. وقدم للترجمة/ المرحوم السيد محب الدين الخطيب، وقال في مقدمته «إنه بعد أن نشرت هذه الترجمة في عدة صحف ومجلات في العالم الإسلامي» ضاق صدر كتاب مجلة العالم الإسلامي نفسها وأمثالهم من أنصار التبشير والاستعمار، لأنهم يودون أن يقوم التبشير بأعماله والمسلمون نيام...».

وهذا الكتاب يحوى من البحوث:

* مقدمة المسيو «شاتليه» عن إرساليات التبشير البروتستانية وتاريخ إرساليات التبشير.

* مؤتمر التبشير الأول في القاهرة سنة ١٩٠٦.

* مؤتمر التبشير الثاني في أدنبره (إنجلترا) سنة ١٩١٠.

* مؤتمر التبشير الثالث في لكنو بالهند سنة ١٩١٣.

* التنظيم المادى لإرساليات التبشير.

* مقاصد المبشرين وآمالهم في المستقبل..

* أدبيات إرساليات التبشير.

* النتائج.

ويقول المرحوم الأمير شكيب أرسلان تعليقا على ما اطلع عليه من نشر الترجمة في الصحف: «ويجب نشر ذلك في كتاب، ويترجم إلى جميع اللغات التي يتحدث بها المسلمون، وأن يطبع منه عشرات الألوف، ويوزع على جميع أنحاء العالم الإسلامي ويقتنيه كل مسلم ذي حمية، ويقرأ منه الخطباء والمدرسون في الجوامع ولا يبرح بين أيدي المسلمين، حتى يستظهروه غيباً، لعلهم ينهضون أخيراً لمقابلة الشيء بمثله.. إلخ»..

وحقاً ما يقوله الأمير شكيب، من أن الواجب على كل مسلم ذي حمية أن يطلع على هذا الكتاب، حتى يعرف ما يدبرونه له، ويقف على أساليبهم وطرقهم، وينهض لمقابلة هذه الأسلحة بما يبطل مفعولها، ويعمل لخدمة دينه..

ثانيهما: كتاب «التبشير والاستعمار» في البلاد العربية: عرض لجهود المبشرين إلخ:

وهو من تأليف الدكتورين الفاضلين: مصطفى الخالدي، وعمر فروخ.. ومن منشورات المكتبة العلمية شارع المعرض بيروت ١٣٧٢ هـ ١٩٥٣ م الطبعة الأولى. وقد قال في مقدمة الكتاب «لعله يصلح أن يكون دليلاً في يد الجيل الناشئ يتتبع فيه جهود المبشرين وسعيهم إلى زعزعة عقيدة الناشئة الشرقية عامة، والإسلامية خاصة، ثم تهيئة هذه الناشئة لقبول النفوذ الغربي والاستكانة إلى الاستعمار».

وقد تحدث الكتاب عن بواعث التبشير، وعن التطبيب والتعليم والسياسة والأعمال الاجتماعية كطريق فسيح للتبشير، وعن الإدارة الأجنبية في خدمته، ثم في الفصل العاشر والأخير عن هدفهم في تشويه الثقافة العربية الإسلامية، وكان مما جاء في هذا^(١):

«رأى المبشرون والمستعمرون عظمة الثقافة العربية الإسلامية، وأنها مصدر عزة الشرق والعرب والمسلمين، وأيقنوا أن أمة لها هذه الثقافة لا يمكن أن تخضع

أو تذلل أو تبيد، فانصرفت أذهان هؤلاء المبشرين والمستعمرين إلى تشويه وجه هذه الثقافة، وإلى الخط من شأنها في نفوس أصحابها.. إلخ».

وقد ذكر فيما ذكره دعوتهم إلى استعمال اللغة العامية، حتى اعتنق دعوتهم هذه كثير منا، كما دعوا إلى كتابة العربية بالحروف اللاتينية، كما حصل في تركيا، وفي الصومال أخيراً.. ووجدوا منا - مع الأسف - من يردد هذه الدعوة، ويحبذها، لتقطع صلاتنا تماماً بترائنا ونصبح أمة بلا أصل.. ولا جذور، فيسهل إقتلاعها من سجل الأمم..

وكانت آخر سطور هذا الكتاب الخطير في معلوماته، والذي يجب على كل مسلم قراءته ليعرف «يديه من رجليه»، كانت هذه النتيجة النهائية لكل ما سبقه في ٢٣٤ صفحة: «فالتبشير - إذن - خطر ديني بالغ، فوق ما هو خطر سياسى واقتصادي، إنه خطر على كيان الأمم الشرقية، إن القضية بالنسبة لنا قضية بقاء أو فناء»..

ويضاف إلى هذين، كتاب مهم ثالث هو كتاب «التبشير والاستشراق»، «أحقاد وحملات» للمستشار محمد عزت إسماعيل الطهطاوى، طبع مجمع البحوث بالأزهر سنة ١٩٧٧م وهو في غاية الأهمية لمن يريد التزود في هذه الناحية، لقد عرّيب المبشرون ورتعوا كما شاءوا في البلاد الإسلامية التي خيم عليها الاستعمار، وأمسك بزمامها، ورتعوا في حمايته ورعايته، حتى رأينا اللورد كرومر في مصر يتدخل لحماية طالب مسلم قد تنصر في القدس، فطلبه أبوه فالتجأ الولد إلى اللورد كرومر في مصر فاستكتبه وثيقة بأنه لا يريد الرجوع مع أبيه^(١) وبسط عليه حمايته.. وإلى هذا الحد كان يصل نفوذ كرومر وعمله!! وهو

(١) ص ١٥٣ المصدر السابق وأحب أن أذكر بمناسبة الكلام هنا عن هذا الكتاب للتاريخ، أنه عند صدوره حورب من جهات متعددة حتى إن المكتبة التي كانت توزعه في القاهرة وجدت مطاردة وضيقت من بعض أجهزتنا، وذهبت جهودى سدى للحصول على نسخة منه، حتى أهداني أحد أساتذتي الكبار نسخته، وأوصاني ألا أكتب اسمه ولا أسمى على الكتاب. وكنت كتبت أنه مهدى إلى من فلان فعدت وعملت على محوه، ولاسيما اسم الذى أخذته منه حتى تمزقت الورقة من الموضوع الذى يحمل اسمه، وهو أمامى الآن وعليها هذا الأثر من المحو ويظهر أثر اسمى خفيفاً والتاريخ صفر ١٣٧٤هـ وأكتوبر ١٩٥٤م بصعوبة.. أذكر هذا الآن ليعرف القارئ مدى المطاردة التي تعرض لها هذا الكتاب في القاهرة، لالشيء إلا أنه =

يمثل دولة إنجلترا في مصر وفلسطين!!...

وإذا كانت البلاد الإسلامية قد نالت استقلالها أخيراً، واحدة بعد الأخرى، فقد تأصلت فيها قواعد ووسائل التبشير ومؤسساته.. وبرغم القرارات التي صدرت في عهد الاستقلال، لتحذ من سلطان هذه المؤسسات بقيت تؤدي رسالتها في ظل العمل التعليمي أو الاجتماعي الذي تتستر وراءه.. بل وتنال أحياناً مساعدة وتشجيعاً من الحكومات الإسلامية، باسم عملها هذا.. دون عناية بالسم الذي في الدسم!!..

فقد علمت - مثلاً - خلال سنة ١٩٨٣م أن راهبة اختارت منطقة متأخرة جداً من الناحية الاجتماعية جنوب القاهرة، لتكون مسرح عملها، فتمركزت فيها، وبدأت عملها مع السكان: من تمرير غذاء وملبس إلخ. وعلمت من خبر موثوق به، وليس بمسلم، أن الممرضات الأجنبية في المستشفى التي كان يعالج بها يخصصن يوم إجازتهن ليذهبن إلى هذه المنطقة حاملات معهن بعض ما يحتاج إليه سكانها، لمساعدة هذه الراهبة!!

ما الغرض من هذا؟..

ولما كتبت أنه الغافلين إلى هذا الأسلوب، تصدى لي أحد رجال الدين غير المسلمين، ورجل آخر، وكتبوا يدافعون عن هذه الراهبة، بأنها تقوم بعمل اجتماعي في قطاع متأخر متخلف من سكان القاهرة، المحرومين من العناية بهم إلخ.. وهي مؤيدة من وزارة الشؤون، وبعض الجهات الرسمية في القاهرة.

وهكذا يبقى التبشير مستمراً يمثل هذه الأعمال الاجتماعية، ويلقى من يدافعون عنه، أو من لا يهتم به.. وقد عملت مدة في دولتين من دول الخليج، مسئولاً عن الدعوة الإسلامية، ولست نشاط التبشير في هذه البلاد وما جاورها متمثلاً في المدارس والمستشفيات والمنشورات، والكتيبات التي توزع على الطلاب والمرضى... وعملت ما وسعني لإيقاف ذلك، وكان جهدي في هذا قطرة في بحر...

= يفضح وسائل الغرب ومبشره، ويعرف إلى أي حد كان النفوذ الغربي - الإنجليزي - في مصر في هذا الوقت، وكيف إمتد لمطاردة كتاب كهذا ومطاردة موزعيه وحامليه أو مقتنيه، وفي أوائل عهد الثورة المصرية!!

وأخيراً وجدنا كتباً تدرس للطلاب في مصر في هذه المدارس تنبه إليها أحد أولياء أمور الطالبات ومن خلالها تسرى سموم الانحلال، وتحطم التقاليد والآداب الإسلامية^(١)، حتى تدخل وزير التعليم سنة ١٩٨٣ م ومنع ذلك، وأمر باليقظة لما يدرس في هذه المدارس من كتب..

ومثل ذلك كنت وجدته في كتاب يدرس في إحدى دول الخليج، ونبته إليه، واتخذت حكومتها قرارها فوراً.. ولكن القافلة تسير هنا وهناك، في غفلة أو تغافل من المسلمين، مسئولين أو غير مسئولين...

ولا بد أن تؤدي هذه المؤسسات رسالتها ما دامت تقوم بأموال جمعت من الغرب، لتحقيق هدفها، ولا بد لها من تطوير عملها ووسائلها، لتلائم الحالة الجديدة في البلاد الإسلامية المستقلة، وتكون كما قال أحدهم في وصاياهم للمبشرين: «يجب أن يظلوا برآء كالحمام، ولكن هذا لا يمنعهم أيضاً من أن يكونوا حكماء كالحيات»^(٢)... نعم.. فهي تعمل بأموالها التي جمعت من التبرعات في الغرب لخدمة المسيح، ونشر تعاليمه، وأشياء أخرى.. فلا بد أن تعمل للغرض الذي جمعت له هذه الأموال.

«فحينما احتج الطلبة المسلمون على إجبار الجامعة الأمريكية في بيروت لهم على الدخول إلى الكنيسة يومياً وكان ذلك عام ١٩٠٩، أصدرت الجامعة منشوراً طويلاً جاء في مادته الرابعة ما يلي:

«إن هذه كلية مسيحية، أسست بأموال شعب مسيحي، هم اشتروا الأرض، وهم أقاموا الأبنية، وهم أنشئوا المستشفى وجهازه، ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر، إذا لم يسندها هؤلاء، وكل هذا قد فعلوه ليوجدوا تعليماً يكون الإنجيل من مواده... وهكذا نجد أنفسنا ملزمين بأن نعرض الحقيقة المسيحية على كل تلميذ وكل طالب يدخل إلى مؤسستنا، يجب أن يعرف مسبقاً ماذا يطلب منه»^(٣)..

(١) ففي الكتاب الإنجليزي المقرّر قصة رحلة مدرسية في إنجلترا، انفرد فيها فتى وفتاة وقضى كل منها حاجته من الآخر.. وعاد الجميع من الرحلة مسرورين إلخ.. هكذا.

(٢) التبشير والاستعمار ص ٤٦.

(٣) المصدر السابق ص ١٠٨.

ومثل هذه الجامعة كل الجامعات أو الكليات الأمريكية أو غير الأمريكية التي قامت في الأقطار الإسلامية.. وهذه حقيقة يجب ألا تغيب عن ذهن أحد. ولا يجوز ولا يليق أن نخدع أنفسنا بالغلاف الجديد، الذي غلفت به هذه المؤسسات نفسها وعملها، عملاً بما يوجه علينا ديننا واستقلال البلاد الإسلامية.. فإن القافلة تسير والهدف لا يزال هو الهدف، وفي عهد الاستقلال: وإذا كان من الصعب - كما قرر كبار المبشرين أنفسهم - نقل المسلم إلى النصرانية، فإن الهدف الذي وضعه نصب أعينهم، ورأوا أنه سهل، هو إضعاف الروح والعقيدة أو الفكرة الإسلامية في نفوس المسلمين، وزرع بذور الشك فيها وفي التعاليم الإسلامية.

«إذ الضعف التدريجي في الاعتقاد بالفكرة الإسلامية، وما يتبع ذلك من الانتقاض والاضمحلال الملازم له بعد انتشاره في كل الجهات - سوف يفضي إلى انحلال الروح الدينية من أساسها»^(١) وحين تضعف الفكرة الإسلامية، أو تنحل الروح الدينية في نفوس المسلمين - كما يقولون - تفقد ثقافتهم العمود الفقري لها، وتتهياً النفوس لاستقبال الغزو الثقافي الأجنبي، دون أية صعوبات أو اعتراضات، ويصبح المسلمون تبعاً لذلك صوراً ممسوخة، لا هي شرقية ولا هي غربية مسيحية، وتخفى كل الحصون أو التحصينات أمام هجمات الغرب الصليبي، ويصير المسلمون في نظر الغربيين كالثمرة الناضجة التي حان أن يقطفوها.. كما يعبرون بذلك في آخر مؤتمر تبشيري لهم في «كلورادو» بأمريكا سنة ١٩٧٨م...

وهذه المناسبة أود أن أضع أمامك هنا شيئاً عن هذا المؤتمر وعن الكتاب الذي صدر عنه وهو بعنوان:

الإسلام والإنجيل:

وهو كتاب باللغة الإنجليزية من ٦٣٨ صفحة يضم الأعمال والبحوث التي

(١) من مقدمة «المسيو شاتليه» في كتاب «الفارة على العالم الإسلامي» ص ١٣.

ألقيت في المؤتمر التبشيري الذي عقد في «جلين أيرى» بولاية كاليفورنيا بالولايات المتحدة الأمريكية في منتصف أكتوبر ١٩٧٨ بتوصية سابقة من المؤتمرات التي عقدت قبله عام ١٩٧٨ بأمريكا ومؤتمر لوزان بسويسرا سنة ١٩٧٤ م..

وقد ضم هذا المؤتمر في «جلين أيرى» «العدد الكبير ممن يمثلون الكثير من مختلف الاتجاهات والهيئات الكهنوتية، المهمة بتنصير المسلمين أساطين وأساتذة التبشير المسيحي والفظاحل من رجال الكهنوت والعتاة من المبشرين العاملين، وكذلك هيئة استشارية ضخمة، تتكون من أساتذة متخصصين في علم النفس، وعلم الأنساب والسلالات البشرية، وخبراء متمرسين في شئون الدول النامية، ومناطق العالم الثالث.

«ولم يكن لذلك من هدف إلا وضع خطة محكمة، ورسم استراتيجية دقيقة لغزو العالم الإسلامي في حملة صليبية عقديّة ضارية، تهدف إلى تنصير المسلمين، وتشويه شريعة وعقيدة الإسلام، وبليلة الأفكار الدينية لدى المسلمين في كافة أنحاء العالم».

وقد مثلت في هذا المؤتمر الكنيسة القبطية في مصر بالقس «بشير عبدالمسيح» الذي ألقى بحثاً في المؤتمر عن التجسد وكيف يصل إلى قلب المسلم^(١).

وهو ضمن نحو أربعين بحثاً تدور كلها حول الهدف الذي اجتمعوا من أجله، وهو تنصير مسلمي العالم وضمهم إلى مملكة المسيح، بعد هدم الإسلام وشريعته في نفوسهم، بالطرق المختلفة، التي مارسها إخوانهم من قبلهم، وهم يزيدون عليها ما يقتضيه تطور الوسائل المؤدية لهذا الهدف..

وقد خطا هذا المؤتمر خطوة أوسع وأقرب إلى الصراحة والمواجهة في مهمته،

(١) من ترجمة قامت بها إدارة البحوث والنشر بجمع البحوث لبعض بحوثه بعد أن حصلت على نسخة من هذا الكتاب الذي طبع بالولايات المتحدة وتولى نشره (مركز الاتصالات العالمية للأبحاث التبشيرية ذلك المستوى الرفيع).. وهذا الكتاب بما ضمه من بحوث، توقف المسلمين على ما يبنيه لهم الغرب ويحتاج إلى همة غيرة لترجمته كله وطبعه ووضع أمام المسلمين حتى ينتبهوا إلى الخطر الذي يتعرض له دينهم وثقافتهم إذا أرادوا الحياة الصحيحة العزيرة.

فعدل عن تعبير التبشير واستعمل بدلاً منها كلمة «التنصير» لأنهم لم يجدوا أمامهم دفاعاً يردعهم!!!

ثم إنه أشرك معه الكنائس القومية، وحملها مسئولية العمل معه نحو الهدف المشترك، وتلك خطوة جريئة وخطيرة، واستفزازية، لا أدرى كيف قبلتها الكنائس القومية المستقلة في الشرق!!

ولا أجد تعليقاً على هذا إلا المثل الشعبي الذي يقول: «يا فرعون إيش فرعنك؟ قال: لأنى لم أجد من يردنى».

وقد أعلنوا خلال المؤتمر أنهم جمعوا نحو مليار دولار، للبدء في تنفيذ مهمتهم، وخططهم فوراً وأنهم فعلاً بدءوا بإنشاء معهد لتدريب المبشرين وتوعيتهم، سموه «معهد زويمير»، وهو أقدم وأعتى المبشرين في الشرق، كما بدءوا في إنشاء مؤسسة نسائية في كراتشي باكستان لتنصير النساء المسلمات هناك!! وكان من توصيات المؤتمر أن تعمل الأقليات المسيحية في الدول الإسلامية على الإكثار من إنشاء الكنائس، والكنائس الضخمة الفخمة، ونشرها في أنحاء بلادهم، ولو كانت الحاجة إليها غير ملموسة، ليظهر وجه المسيحية في هذه البلاد الإسلامية، إن استجيب لهم، وإلا قامت بينهم وبين حكومات البلاد وشعوبها أزمات واصطدامات تشوه من سمعة هذه البلاد في المجتمعات المسيحية الغربية^(١)!! وتقوم بمساندتهم بما لها ونفوذها!!

والشئ بالشئ يذكر:

وإذا كان الشئ بالشئ يذكر، فإننى لا أرى مانعاً لدى القراء أن أذكر شيئاً يتعلق بهذا المؤتمر.. فعندما نشرت «مجلة الأمة» القطرية شيئاً عن هذا المؤتمر، وإشارة من قارئ بأمريكا عنه، أرسلت إليها تعليقاً بعنوان: هذا ما فعلوا فماذا فعلنا؟ وكان ذلك على ما أذكر خلال سنة ١٩٨٢ بعد عقد المؤتمر بنحو أربع

^١ (١) خطبة نرى معالمها قائمة، ومن قبل انعقاد هذا المؤتمر وبعده، مما يشير إلى التلاقى العام في الخطط والهدف مع الأسف!!

سنين: فأين كان الغيارى من المسلمين الذين علموا به طوال هذا المدة ولاسيما هناك؟

ولما طلبت منى «مجلة العروة الوثقى الجديدة»، التى كانت تصدرها المرحومة «جامعة الشعوب الإسلامية» أرسلت لها مقالين، فيها بعض التفاصيل عن هذا المؤتمر.. تسلمهما منى صديقنا الأستاذ الشاعر الأديب محمد التهامى، المستشار بالجامعة العربية، والمشرف على تحرير «مجلة العروة» لنشرهما، وكم أسفت بعدها وتألمت، لأن المسئولين عن تحرير المجلة وعلى رأسهم الأمين العام لجامعة الشعوب، أشاروا بعدم النشر!! كما عرفت من الأستاذ التهامى، وقلت: لقد تساءلت فى مقال «مجلة الأمة» هذا ما فعلوه فماذا فعلنا؟. وكنت أستفز الهمم لنفعل شيئاً عملياً إزاء مخطط هؤلاء.. وبعد مدة جاءنى الرد من هيئة تحرير.. «العروة الوثقى» عليها رحمة الله، على تساؤلى «ماذا فعلنا» بفعل لم يكن فى الحسبان، إذ خافوا حتى من مجرد نشر معلومات عن هذا المؤتمر بيننا!! وكان من حسن الحظ أنى وجدت صورة لأحد المقالين «مقال مجلة العروة» وأظن أنه لا مانع من وضعه أمام القراء هنا.. وفيه معلومات أرى من الخير إضافتها هنا، وليعلم القارئ: ماذا خاف منه السادة من كبار مثقفى ورجال المسلمين فى «العروة» وإلى أى مدى وصلت حالتنا؟.. والله الأمر..